وقد تقام حفلات التكريم للأشادة بصفات عظيم ، أو التنويه بماقام به من عمل جليل ، ولكن أكثرها حفلات تأبين ، تقام بعد أن اختفى المحتفل به عن المسرح وغاب عن الأنظار ، أو بعد أن أعجزته السن وخرج من ميدان العمل والمنافسة ، أو هى حفلات تجارية أقيمت لمنفعة المحتفلين لا المحتفل بهم

الحق أن هذه العاطفة - عاطفة البحث عن الخطأ واذاعته والولوع بالنقد أكثر من الولوع بالتقريظ - عاطفة تشارك الانسان فى جميع أدواره

وتعليلها - على مايظهر - يرجع الى غريزة الأثرة وحب النفس ، كأن الانسان يرى أن القول بعيوب الناس يتضمن القول بتفوقه ، والتشهير بأغلاطهم اقرار سلبى بنبوغه ، والعمل على تحقيرهم قد ينتج مع الزمن انفراده بالعظمة ، والسخرية منهم تستتبع الاعتراف بجلاله وحده

ولكن المدنية والحضارة ، والرقى العقلى والخلقى ، تهذب من هذه العاطفة ، كما تهذب من سائر العواطف ، فالناقد المهذب يكتفى بالتلميح دون التصريح ، وبالاشارة دون التجريح ، يقول مافى نفسه ولكن يتخير الألفاظ ويتخير المواقف ، ويترفع عن الفاظ الغوغاء وأساليبهم ، والمقارنة بين الجرائد والمجلات ، وأساليب النقد فى الأمم المختلفة تؤيد هذا كل التأييد

لو سار الأمر على المعقول لخف كثير مما يصدر من لوم ونقد ، لأن أساس اللوم امكان المسئولية ، فاذا لم تكن فلا لوم ، فلسنا نلوم المرضى إن لم يأتوا باعمال الأصحاء ، ولا نلوم البدوى كما نلوم الحضرى ، ولا نلوم الجاهل بما نلوم به العالم ، ولا نلوم الطفل فى المدارس الابتدائية إذا لم يحل معادلة جبرية أو نظرية هندسية

انما نلوم الأنسان عند ما يكون فى الامكان أن يفعل خيرا مما كان ، ولو قدر اللائمون تقديرا حقا مايحيط بالملوم من حالة عقلية وجسمية وبيئة اجتماعية ومن عوامل خفية معقدة يصدر عنها العمل لخففوا من غلوائهم ، ولطفوا من لومهم ، ولعلموا أن استحقاق اللوم نسبى يرتبط بالسن وبدرجة الثقافة والمدنية وحالة الفرد فى أمته وموقف أمته فى العالم

ولو سار الناقد على المعقول ، لوقف موقف المصلح لا موقف الجاسوس ، إن الجاسوس يهمه أن يرى الخطأ ليبرهن على كفايته ، ويسره أن يرى العيب ليقبض على فاعله ، وكلما أوغل فى استكشاف العيب الدفين ، وتعمق فى اظهار جريمة مستورة ، كان أدل على قدرته ونبوغه ، ويأسف ان لم يكن عيب ، كأنه يشعر شعورا باطنيا أنه ارهاص بأن لاحاجة اليه — والمصلح يستكشف العيب لا ليشهر به ، ولكن ليعالجه ، وأقصى أمانيه ألا يكون عيب ، واذا كان فأن يداوى ، ويعتقد أن مهمته تتم - مع السرور - يوم يزول المرض ويتلاشى النقص ، وأنه بنقده ولومه إنما يصف دواء يستأصل الداء ، ويأتى عليه

أسوأ مانرى أن يكون الناقد كالفرس الجموح ينال من الناس بهوجه وخبطه ، أو أن يقف فى نقده موقف الغر يداعب بالنار ، أو الطفل يلعب بالسكين .

المعالى . . .

للدكتور محمد عوض محمد

الآن وقد بلغت ربوع الألب أيها الصديق ! ، فما أجدرك أن تلقى عصاك حينا . ثم تنعم النظر فيما حولك من خلق عجيب ، ومن روعة آخذة بالألباب . . . فى هذا الجزء الصغير الجليل من العالم أرادت الأرض أن تسمو وتعلو . . أتراها كانت تريد أن تبلغ السموات ، ثم لم تلبث أن رأت هذا السمو قد أبلغها الزمهرير المهلك القارس ، فجمد فى صدرها الأمل والطموح ، واكتفت من الارتقاء بشىء لعلها تراه قليلا ، ونراه نحن جليلا ؟ . وأيا كان ذلك السر الغامض الذى جاش به صدر الأرض ، وأياً كان مطمحها البعيد أو القريب ، فحسبى الآن وحسبك ما نتأمله فيها من حسن وما ننعم به من جمال .

فى هذه البقعة المباركة رفعت الأرض مناكبها ، وأمعنت فى الارتفاع ، وصعدت أعلامها فى الهواء وأسرفت فى الصعود . واصطدمت السحب بهذه الأطواد الشامخة فسالت السحب غيثا مدراراً ، وانحدر الغيث على جوانبها جداول وأنهارا . ثم اجتمع الماء من كل ناحية فى هذه البطائح المطمئنة ، ولم يزل يجتمع حتى استحال الى هذه البحيرات البديعة ، وقد نزلت اليوم على ضفاف واحدة منها . فراعك حسنها الهائل ، وفتنتك عيونها الساحرة ، واستهواك قوامها الرشيق ، وخدها الأسيل . . . ولقد بهرك منها

بنوع خاص هذا الجمال المتجدد فى كل لحظة ، إذ تبدو لك الصبح فى لون ، والأصيل فى لون ، وتبدل فى كل آونة ثوبا . . . أرأيت يا صديقى ، كيف حرت فى أمرك وأمرها ، فما تدرى أى ألوانها أحب الى قلبك ، وأى أشكالها أشد امتلاكا لعقلك ؟

أمنظرها وقت الشروق ، وهى هادئة وادعة ، وقد انطبعت فى صفحتها البلورية الملساء صورة مبهمة قاتمة للجبال الشاهقة التى تحيط بها ، وقدحالت الجبال دون وصول أشعة الشمس . فلم ينفذ الى البحيرة من نورها سوى ضياء هادىء رقيق ، يبدى لك من الكون ماحسن ، ويخفى منه ماليس بالحسن . ولولا أنى أخشاك ياصديقى لقلت لك إن البحيرة فى تلك اللحظة تشبه الحسناء حين تستيقظ من النعاس ، ولكنى أحسبك لا تعبأ بمثل هذا التشبيه . . .

أم منظرها وقت الظهيرة ، حين تظلها سماء صافية زرقاء ، وتبدو الجبال من حولها ، وقد زهت بثوبها السندسى الأخضر . . فبدت لك البحيرة فى رداء عجيب : فى مزيج من فيروز السماء ومن زمرد المروج الخضراء ؟

أم منظرها وقد مالت الشمس للمغيب ، وقد اشتمل الكون برداء مصفر حزين ، وامتدت الظلال وأمعنت فى الامتداد ؛ وآوت الطير الى وكورها وخففت من غلوائها . ولاحت لك البحيرة وقد تمثل فيها كل هذا الهدوء الحزين ، وعلى محياها ذلك الشحوب الفاتن . فى هذه الساعة القصيرة تتبدل لك الألوان والشكول بسرعة هائلة ، فلا تكاد العين أن تقع على منظر حتى يحول ويتغير .

قل لى أيها الصديق ! أما استهواك منظر هذه الأطوار التى أحدقت بالبحيرة من كل جانب ، وقد اختفى تحت الماء منها شطر وحلق فى السماء شطر . فأما شطرها البادى للعيون فقد اكتسى بغطاء محكم من النجم والشجر ؛ وأما شطرها الذى غمره ماء البحيرة فانه عار ، ومن عناية الأقدار أن غمرته المياه فسترته عن العيون .

ولكن حدثنى ياصاح أى هذين الشطرين قد شاقك أمره ، فتاقت نفسك الى ادراك غامضه واجتلاء ما خفى منه ؟ هل خطر لك أن تغوص الى أعماق هذه البحيرة حتى تبلغ أقصى أصول تلك الجبال ، فتطلع على ما خفى من سرها ، وما أبهم من أمرها ؟ أم شاقك منظر هذه القمم الصاعدة فى السماء فأردت أن تبلغ ذراها ؟ إنى لا أظنك تحاول الأولى ؛ فقليل من الناس من تستهويه الأعماق البعيدة ، فيحاول أن يغوص إليها . ونحن ذوو أحلام ضحلة ، لا نجد فى البحث العميق إلا عناء ونصبا . وسنبقى مدى الدهر قانعين بالظواهر تخدعنا وتقنعنا .

أما هذه القمم العالية ، فانك تراها أمامك كل حين ، تبصرها عندما تستيقظ وتشرف عليك من سمائها النهار كله ، وتبدو لعينيك فى الليل البهيم مظلمة قاتمة ، غامضة رهيبة ، لكنها على هذا كله جذابة أبدا . . . وأحسبك قد استهواك أمرها ، وحدثتك نفسك بالصعود اليها . وفى كل نفس دافع ملح يدفعها أبدا إلى المعالى ، ويحشمها فى سبيلها الصعاب .

وكأنى بك ، أيها الصديق ، وقد جلست فوق صخرة مشرفة على البحيرة وجعلت تتأمل هذه القمم ، فتحس شوقا قد تملك قلبك ، وضراما متوقدا يستثير همتك إلى صعود هذه الجبال ، وبلوغ تلك المعالى . . انك تريد أن تسمو حيث يحلق العقاب ، ويسبح السحاب ، حيث تنشق ذلك الهواء النقى الزكى ، الذى تنشقه البزاة والنسور ؛ لا هذا الهواء الأسفل الذى امتلأ بالأدران والأكدار ؛ حيث تنظر من تلك القمم مطلا على هذه الأجساد التى تتحرك على أديم الثرى ، فتراها من ذلك الارتفاع الشاهق على حقيقتها ، فاذا هى فى عينيك دود يزحف ، أو حشرات تحبو .

إن بلوغ تلك القمم لخليق حقا بأن يكون مطمح العين ، ومنية النفس . ولا حرج عليك ان كنت قد شغفك حب تلك المعالى وأهمك التفكير فيها . فطوراً يحملك الأمل على جناحيه ، ويحلق بك فى جو السماء ، فتخال المرام قريبا ، وأنه منك قاب قوسين ؛ وطورا يثوب اليك الرشد ، فتفكر وتقدر ، وتقارن بين همتك وقدرتك . . فلا تزال بين ارتفاع وهبوط ، واقدام واحجام .

ثم كأنى أراك بعد ذلك وقد قطبت جبينك ، وعضضت على نواجذك ؟ فهل صح عزمك على أن تجشم النفس هذا العناء الثقيل وهذا الجهاد الطويل ؟ لئن كانت تلك عزمتك التى عزمت ، فهل تعلم أى الطرق تسلك كى تبلغ مأربك ؟

إن لهذه القمم التى تراها حديثا شيقاً طليا ، سأحاول الآن أن أسر اليك خبره . فلعلك واجد فيه عونا على النجاح أو سلوانا عن الاخفاق . . .

إن الناس أيها الصديق يبلغون تلك المعالى من طرق ثلاثة ، ليس لها رابع : فأما الطريق الأول فسبيل معبد ممهد ، تحف به الرياحين ، وتجرى حوله الانهار ، وقد نبت فيه العشب الندى ، وأحاط به الثمر الجنى ، وأعجب مافى هذا الطريق أن سالكه لا يكاد أن يسير فيه خطوات قلائل ، حتى يبلغ مأربه ، كأنما الغاية تسعى اليه ولا يسعى اليها ، أو كأن الطريق يحمله حملا يبلغه مرامه . فما هو إلا أن يغمض طرفه ثم يفتحه ؛ فاذا الامانى قد تحققت ، والمعالى قد دنت ودانت .

وأظنك تعلم ياصديقى أن ليس لأمثالك وأمثالى أن يسلكوا

هذا الطريق ؛ وأحسبك تعلم أنه مما اختص به أولئك المجدودون ، الذين ولدوا فى حجر النعيم ، ورعتهم نجوم السعد ، وحرستهم عين المشترى، وهزت أرجوحتهم يد الزهرة: وفى وسعهم إن شاءوا أن ينزلوا الى القمة نزولا ، حين يحاول الناس أن يصعدوا اليها صعودا . ما من سبيل الى مجاراتهم أو اللحاق بهم ، فلندعهم فى طريقهم ولننظر هل لدينا من طريق سواه .

أما الطريق الثانى فلعله أعجب من الأول وأغرب ؛ فهو طريق خفى ، شديد الخفاء . غامض كل الغموض ، لا ترى له بدءا ولا تعلم له اتجاها . ملتوغاية الالتواء ، معوج شديد الأعوجاج . وسالكوه قوم قد رزقوا البراعة والمهارة . فهم تارة يثبون ويقفزون ، وتارة يزحفون أو يحبون ويركعون ويسجدون ، وطورا يسلكون طرقا مظلمة حالكة ، وأحياناً يخوضون فى الرجس والدنس . لا تثنيهم رداءة الطريق ولا وعورته ، ولا اعوجاجه والتواؤه . وما أنت ياصاح من هذه الشرزمة التى تصل الى القمة من أقذر السبل . فما أجدرك ان تدع هذا الطريق وتبحث عن سواه .

لم يبق أمامك غير سبيل واحد لا مندوحة لك عنه : وذاك هو الطريق الذى يدعوه أهل تلك النواحى « طريق البغال » : اسم ستنبوعنه أذنك ، وتشمئز منه نفسك . وسترفع رأسك إلى السماء كبرا وأنفة ان تنزل الى هذا الدرك . أو تنحط الى هذا المستوى . . . لكن رويدا فليس فى الأمر نزول ولا انحطاط ، وانما هو صعود وارتفاع وارتقاء ، وقد ينتهى بك الى القمة التى تنشدها . فلتخفف إذن من غلوائك ، واذكر أنهم يدعون هذا الطريق بالفرنسية Sentier Muletier ويسميه الانجليز Mule-track والالمان Saumweg وأظنك بعد أن تردد هذا الاسم فى هذه اللغات جميعا . سيصبح فى أذنيك عذبا لذيذا سائغا

ولئن كان فى الاسم ماينفر السمع ، فليس فى المسمى ما يبعث على النفور . ولعمرى — بل ولعمرك أنت أيضا — انه لأشرف السبل وأمثلها ، وأصفاها وأطهرها ، وإن كان طويلا مضنيا مجهدا . فاذا كنت تريد المضى فيما عزمت عليه ، وتحاول الصعود الى تلك المعالى ، فمحال على مثلك ، أن يسلك الطريق الأول ، وأنت أعف قلبا وأنبل نفسا من أن تسلك الطريق الثانى . إذن لا رأى إلا أن تسلك ثالث الطرق ، أو تثنى عن مرامك ، وتقنع بالاقامة فى السفح ، مكتفيا من القمة بالتطلع اليها والتحديق فيها . . .

طريق البغال هذا سكة اختطوها على جوانب الجبال ، كى يستطيع الرعاة والزراع أن يسيروا فيها ببغالهم وماشيتهم ، وكثيرا ما تصعد فيها البغال منفردة ، وهى تحمل للناس أثقالهم من موضع إلى موضع. وقد علمها إلف هذا الطريق كيف تسلكه من غير مرشد يرشدها، أو سائق يسوقها .

فى هذا الطريق اذن فليسر من ينشد القمة ، وأنا زعيم أنه اذا أوتى القوة والجلد ، ورزق الجد والدأب ، واستطاع أن يصبر على مايلقاه من عنت وجهد ، وأن يثبت للشدائد التى تنتابه ، وللعقبات التى تعترضه ، ولم يدع لليأس سبيلا إلى قلبه ، وأمدته العناية بشىء قليل من المساعدة ، فانه واصل إلى الغاية مهما طال به المسير .

إن هذا الطريق واضح بين المنهج ، من سار فيه فلن يضل السبيل . . لكنه على وضوحه وبيانه ، ليس سهلا هيناً - ومتى كان الطريق إلى القمة سهلا يا صديقى -؟ فالسائر فى هذا الطريق سيجد فيه غلظة وخشونة ، فان الأيدى لم تتناوله بالرصف والتمهيد ، وحصباؤه خشنة مدببة ، لا ترتاح لمسها الأقدام ، وقد يصادفك فيه الحين بعد الحين ، صخر ناتىء أو شجرة مائلة تعترضك ، فلا بد لك أن تطأطىء الرأس قليلا ، أو تدور من حول تلك العقبات ، أو تحتمل الجرح الذى يصيبك حين يصدمك الصخر الناتىء ، أو الجذع المائل ، وكثيراً ما يحف بك الشوك ذات اليمين وذات الشمال ، فيخدش ساقيك خدشاً ربما أسال منهما الدم قليلا أو كثيرا . . ولا غرابة فى هذا كله ما دمت تسلك هذا الطريق : طريق البغال!

ولقد تقطع فى سيرك الأميال العديدة . فلا تصيب فيه قوتاً ولا شراباً ، فتجتزىء بالقليل من خشن الزاد الذى احتقبته ، وتصبر على الظمأ والجوع ، وفى قلبك من الجلد والايمان ما يعين على كل هذا الحرمان . . وقد يسعدك الجد بعد طول السير والعناء فتصادف وسط الصخور نبعاً ضئيلا هزيلا ، فتهش له وتبش وتراه كأنه دجلة أو الفرات ، أو الكوثر المقدس . فتبسط اليه كفيك ، تتخذ منهما قدحا تملؤه كى تبرد به لهاتك . ثم ترى أن هذه الوسيلة لا تغنى فتنحنى نحو الينبوع ، ثم لا تزال تنحنى حتى ترتمى على يديك ورجليك ، وتمد نحو الماء فماً قد جمده طول الظمأ ، فلا تزال تعب الماء عبا ، وتصبه فى جوفك صبا ، وتشرب وأنت على أربع حتى تروى غلتك ، ولا تسل عن منظرك البديع فى تلك اللحظة ، ولكن أى غرابة فى هذا وأنت تمشى فى طريق البغال ؟

* * *

وقد تكون الطريق فى بعض نواحيها سهلة ممهدة يحف بها شجر عال فيه للطير وكور . وكأنى بك وقد أطلت عليك من فرع غصينها الميادقيرة صغيرة حديثة عهد بالعالم ، ولم تشاهد قبلك انسانا يمشى على رجلين ، فتدهش لرؤية هذا الكائن الغريب فى طريق

ما رأت به من قبل إلا الدواب ، فتسرع إلى أمها وتهيب بها : « أماه ! إن بالطريق بغلا جديداً ما رأيت من قبل له شبيها ، يمشى على رجليه الخلفيتين ، رافعا رأسه الى أعلى ! . . » فعند ذلك تقول لها أمها العجوز : « ليس هذا يا ابنتى بغلا بل هو من أبناء آدم ، فان أبصرته فابتعدى عنه ، واختفى عن عينيه ، فانه ليس بالمأمون جانبه . »

هذا بعض مايقال عنك أيها الصديق وأنت بذلك الطريق . ولو كشف عنك الغطاء فأفهمت ماتتحدث به عنك الأرانب فى جحورها والوزغ بين صخورها . اذن لتبسمت ضاحكا من قولها كما فعل سليمان ، ولأدركت أن مسيرك هذا لايخلو من عبث ولهو وتسلية .

ولكن حذار ياصديقى مما قد تلقاه من حشرات فتاكة . فان بالطريق أفاعى وعقارب ، قد فاضت صدورها حقداً وضغينة ، وهى تعشق الاذى حبا فى الأذى . فان مسك منها ضر ذهبت جهودك كلها عبثا ، أو تخلفت بالطريق زمنا طويلا . فامش اذن فى تؤدة واحتراس ، لعلك تسلم من حممها وسمومها .

* * *

والآن قد وصفت لك الطريق الى القمة فسر فيه على اليمن والبركة . . . بيد أنى لا أريد أن أكتمك أن سالك هذا السبيل قد لايبلغ من مرامه أو ينال من بغيته إلا قدرا زهيدا . فقد يدركه الاعياء حين يعجز الجسد عن مراد الروح ، وتخور القوى والأمل فى عنفوانه . أو قد تعترضه عقبة كؤود أو هوة ليس الى اجتيازها سبيل . أو قد تناله تلك الحشرات الفتاكة بسوء ، فاذا أصابك هذا - بعضه أو كله - فلا تذهب نفسك حسرات على مالم تبلغ ولم تنل ، وحسبك انك لم تزل برغم الاخفاق موفور الشرف عزيز الجانب ، لم ترتكب فى سبيل تلك القمة إثما ولم يدنس لك ثوب . . .

والا فهل تؤثر البقاء فى السفح ؟

التحضير للشهادات
فى المنزل

يمكنك أن تحصل على البكالوريا أو الكفاءة أو الابتدائية ، وأن تدرس أى لغة أو تتخصص فى الصحافة أو تأليف الروايات أو الرسم فى منزلك ، رسوم التعليم فى غاية المهاودة ومستقبل راق مضمون. أطلب مجانا كتاب طريق النجاح وكتاب كيف تكون كاتبا . فقط ١٠ مليمات طوابع تكاليف البريد (قسيمة مجاوبة فى الخارج)

أكتب الى مدارس المراسلات المصرية ١١ شارع سنجر السرورى فاروق مصر تليفون ٥٠٣٥٩

الديمقراطيـــة (١)

أكثريات وأقليات وتشريع

إن حكم الأكثريات ضرورة لازمة لحكم الجماعات . وأنت ترى الأحكام والشرائع مادامت ترجع فى إبرامها الى اجازة عدد من الناس يخضعون لقانون أساسى ، فلا مناص إذن من أن تتقيد الحكومة برأى الأكثرية وتعنو له . ولقد أيدت المحاكم العليا هذا المبدأ حينا بعد حين ، وخلال طور بعد طور ، على مدى الانقلابات السياسية ، وأيده المؤلفون فى كثير مما أبرزوا من المؤلفات التى تناولت البحث فى النظريات السياسية ، كما وضع موضع التنفيذ الفعلى فى نظام الحكومات فى كثير من دول الأرض . ولا جرم أن حكم الأكثرية الذى يمثل رأى الجماعات له الغلبة حتى الآن فى نظام الحكومات الحديثة

أما فى القرون الوسطى فان القول بمبدأ الأكثرية لم يكن أكثر من حيلة لجأ اليها الحكام ليتقوا بها الصراع بين فريقى الشعب كلما بدرت بوادره ، بأن يظهروا للناس من طريق الجلاد الفكرى مقدار مايترتب على الصراع البدنى فى النتائج . وعلى الضد من ذلك ذهب الديمقراطيون فى الأعصر الحديثة . فأنهم بعدوا عن التحايل على الناس بالأفكار والنظريات ، فأصبح حكم الاكثرية عند بعض المؤلفين عبارة عن « مبدء عام ثابت له من المسوغات الأدبية والخلقية ما يكسبه مناعة قصوى » - كما يقول هنبرج فى كتابه : « نظريات حكم الأكثرية » ويؤيد الاستاذ « مكيفر » هذا الرأى ولكن بأسلوب آخر فيقول أنه - « يجب علينا أن نعتبر أن كل الحكومات التى لاتتجلى فى كيانها إرادة الاكثرية صورا بتراء إذا قيست بأنظمة الحكومات الرشيدة » وهذا الرأى يتضمن ضرورة فكرة أن الارادة العامة هى لدى الواقع إرادة الاكثرية ، لا إرادة المجموع كله . ويقول مؤلف ثالث هو الاستاذ « هرنشو » فى كتابه - « الديمقراطية فى مفترق الطرق » — « إن عقيدة الرجل الديمقراطى لابد من أن تحمله على الاعتقاد بأن أكثرية الشعب لا محالة واقعة على الحق يوما مهما طال عليها عهد الخرق والضلال ، وأنها لابد من أن تعمل جاهدة يوماً ما على أن تقيم العدل وتضع الحق فى نصابه . » على أن الاستاذ « هرنشو » مسبوق بهذا الرأى . فان البابا « إنوسان » الرابع فى (القرن الثالث عشر الميلادى) قد سبقه إلى القول - « بأن استكشاف الحق من طريق الكثرة يكون أهون وأقوم . »

(١) بحث ملخص عن مجلة المجمع العلمى الامريكى للسياسة والاجتماع